قصة شلي الغرامية

حقائقها اغرب من مبتدعات الخيال

تلخيص وتعليق : بقلم م. ع. الهاشمي

في أوائل القرن التاسع عشر طرد شاب من جامعة اكسفورد على أثر تأليفه رسالة عنوانها « ضرورة الإلحاد » . كان اسم هذا الشاب برسي بيسي شلي وهو الوارث الوحيد للقب بارون في مقاطعة سسكس الذي قدّر لهُ بعد ذلك أن يكون أحد شعراء الانجليز الخالدين . كان الشاب غريب الأطوار . وكان يتمتع بنصيب كبير من الجمال بدا في شعره الغزير الحصيب ، وعينيه الزرقاوين المتألقتين ، وعنقه الناعم الذي كان يظهر من فتحة زيقه . وكان في جماله الرائع القويّ وشخصيته الجذابة العظيمة قوّة لا يتغلّب عليها . . قوّة خضعت لها كل النساء اللاتي قابلهنّ وإن كانت تطغى عليها أنوثة رقيقة تخيّلها النعيم وأرهفها الإحساس !

وكان الشاب ثائراً على كل قوانين المجتمع آنئذٍ ، وكان يجاهر بآراء تعترض وما ألفهُ العرف في ذلك الحين . لقد كان ملحداً وكان ينشر رسالة خطيرة عن تحرر الحب من كل القيود والتقاليد فلا عجب إذن أن رأينا جامعة اكسفورد تفتح بابها لتدفع منهُ تيار هذه الآراء الشاذة السابقة لأوانها وتلقهُ في وجه صاحبها إلى الأبد

ومن البديهي أن تكون حياة شاب غريب الأطوار كشلي مملوءة بمفاجآت غرامية عجيبة تؤلف قصة متباينة الموضوع هي مزيج من عناصر المأساة والمهزلة والملهاة . لقد كان يمتاز بطبيعة سامية قوية تقدّس الحق وتعبد الجمال لا تشوبها منقصة ولا يختلط بصفائها فساد . كان يحترم المرأة ويجلها . . كان رحب الصدر رحب الفؤاد سمحاً يغفر الاساءة وينساها . ولكن لم تترك هذه الطبيعة الهادئة تنعم في محرابها طويلاً فقد أثارتها المعاملة الوحشية التي قاساها من الطلبة في كلية « ايتون » . كانت حياة المدارس آنئذٍ كابوساً ثقيلاً يعذّب شابًّا على هذا الخلق العظيم اتفقت كل الأولاد أن تطاردهُ وتدعوهُ بـ « شلي المجنون » . وأصبح هدفاً لتضاحكهم ومرمى

لما اكتسبه فتركت كل هذه الأشياء أثراً عميقاً في نفسه طول حياته

ولما غادر شلي أكسفورد إلى صسكس أحب ابنة عمه «هاريت جروف» حباً شديداً. وكان لا يفارقها ضحى النهار وشطراً من الليل. وكان يقضي نهاره يلعب معها ومع أختها الصغيرة وكثيراً ما كانوا يختلفون الى الكنيسة هناك يجلسون جميعاً وفي وسطهم شلي وقد طرّق خصر كل منهما وهما في ذهول يستمعون إلى قسمة الصبية العربية عن الحياة ولا سيما الى آرائه الشاذة عن الزواج والحب المتحرر الطليق

ولم يتحمل شلي الحياة طويلاً في «صسكس» بعد أن نبذه والده وكل عائلته فتركها وسافر الى لندن يصحبه صديقه «هوج» — وكان قد طرد من أكسفورد ايضاً — وفي أثناء ذلك أخذ حب هاريت واعجابها بشلي يتضاءلان ، وبدأت تعاليمه يضعف أثرها في نفسها . فكان وقع ذلك الماً عنده وقضى وقتاً عصيباً في لندن يداري غصص الحيرة في الحب ، وحمله ذلك على التفكير في الانتحار . لقد تبرأ منهُ والده ، وأصبح لا يملك من حطام الدنيا شيئاً يذكر . وكادت المتربة تخنقه لولا ما كان يصله من اخواته مما كنّ يدخرنهُ في جيوبهنّ وكنّ قد انتهين إلى مدرسة في «كلاپم» تعنى بثقافة صغار الفتيات . واخذ شلي يتردد عليهنّ في هذه المدرسة ولم يلبث ان خطف في سماء حياته مذنب سماوي جديد جعله ينسى خيبة الحب الاول . وكان اسم هذا النجم الجديد «هاريت» ايضاً . «هاريت وستبروك» وهي ابنة صاحب نزل كان شيخاً هرماً متقاعداً كان يرجو لابنته مستقبلاً سعيداً فيما تحصله من ثقافة

***

كانت «هاريت» قد اطلّت على السادسة عشرة أو تقدمتها بقليل وكانت مخطفة القامة يختبىء جمالها في اسدال شعر اثيث ذهبي . وكانت ناعسة في يقظة وشقية منبوذة في المدرسة حيث كانت تحس الغربة بين بنات الاشراف اللاتي كنّ لا يخفين تقززهنّ من خفيض نسبها . وفرح والدها أن عرف بصداقة ابنته لابن بارون كبير ولم يجد مانعاً من ان يخلي الشاب حتى منتصف الليل بابنته «هاريت» وهي منحرفة المزاج راقدة في غرفة نومها

وسافر شلي على أثر ذلك الى ويلز ، وأمضى هناك غير بعيد وكانت تصله هناك خطابات من هاريت تهدده فيها بالانتحار إن لم يحضر في الحال . لقد أثمرها والدها بالعودة إلى المدرسة التي أصبحت تمقتها من كل قلبها . وجزع شلي لذلك لانهُ هو الذي أثر فيها وغرس تعاليمه الالحادية في عقلها الناشىء الصغير . لقد شعر بانهُ مسئول عن سعادة هذه الفتاة المسكينة . وكان من جراء ذلك أن رجع الى لندن وقابل «هاريت» ثم تبادلا معاً اعلان حبهما وهربا في

الخفاء في عربة البريد التي تسافر الى ادنبره . كان شلي آنئذ في التاسعة عشرة وكانت « هاريت » في السادسة عشرة او نحوها . واقترض من صديق له بضعة جنيهات نفدت كلها قبل ان يضرب عصاه على ابواب اسكتلندا . ولكن كان له في ادنبره أصدقاء يعتمد عليهم . وقد قص شلي قصته على احد ذوي الاملاك الذي وجده بلا مأوى فآواه وفقيراً فقدم له مالاً ومتاعاً . وقبل أن يبرح لندن أقنعه صديقه « هوج » بضرورة اقترانه بهاريت ولو أن ذلك يخالف مبادئه كلها على طول الطريق . اذ انها وحدها التي ستعالج شفاء الجرمان وتتجرع كل غصصه واخيراً وافق شلي على الزواج بها وأعد له اصدقاؤه الاسكتلنديون الجدد مهرجان العرس

كانت الحفلة تزخر بفريق من تجار ادنبره وكانوا على اعظم ما يكون مجوناً وخلاعة وأخذ عيشهم يزداد وسخريتهم تخرج عن حدودها حتى اضطر الزوجان الى الانسحاب بين رنين الضحكات . وما كاد يذهب الى منزله ويستقر قليلاً حتى سمع طرقة على الباب . ولما فتحه وجد المالك المترع الضليل وأصدقاءه السكارى

وقال المالك وهو يسعل : « من التقاليد هنا ياسيدي ان تحضر في منتصف الليل لتسل العروس بالويسكي » !

وهنا ثار الشاعر الناضب وتناول غدارتين وصوبهما نحوهم فولوا خوفاً

وأحب شلي « هاريت » حباً عميقاً وان ادعى ان فراره معها لم يكن الا لمجرد الرغبة في المغامرة . كانت الفتاة ضعيفة الارادة . لا حول لفكرها عليها ، وقد شغفتها تعاليم زوجها هوى حتى استوعبتها استيعاباً . وكانت تقرأ جميع الكتب التي قرأها زوجها . قرأت كتاب «جودوين» في «العدل السياسي» الذي اوحى الى شلي بالكثير من آرائه المرطوقية ومذاهبه الفلسفية الشاذة . وعلى الرغم من ذلك فان الفتى كان نزاعاً الى الاختلاط بدائرة واسعة من الناس ، وكان شديد التألم لبعده عن صديقه هوج . وكانت هناك ايضاً صديقة غريبة الأطوار هي «المس هتشنز» تمتاز بأنها الرومانتي وقد أملت كثيراً ان تتصل بشلي . وكتب هو اليها يسألها ان تجيء لتشاركه الزوجين في احلام شهر العسل . ويقول « سوف تتساءلين — على ما تظنين من انكاري والحادي — كيف خضعت لفكرة الزواج وكيف قبلته عن رضى . . انني سأوضح لك كل ذلك ولك ان تلومي ، ياصديقتي العزيزة ، اولا تلومي ما اقدمت عليه » . ولكن المس هتشنز لم تهتم عليه بالرد !

وقدم اخيراً صديقه « هوج » . وسافر شلي ليقابل والده مستعيناً بصديق قديم علّه يتوصل الى اقناع هذا الوالد بضرورة امداد شلي بالنقود الضرورية . سافر وترك زوجته وحيدة مع « هوج » الذي أحبها وأسرف في هذا الحب ، ولكن شراً لم يقع بينهما وقدمت

أحب شلي في أول فصل الربيع وحاول جهده أن تتبع « هريت » صديقة الفراية فنجحت. ولما صحح شلي الخطيب الشعر كتب مع « فتاه صديقه « هوج » عشر » إنه رجع عن الرجل الذي حسبه أن يصيبا في شرفه ».

وصحح شلي نجاحاً يسيراً في تبعه التي قام من أجلها بالرحلة فقد « سعد » صديقه عند أبيه وقبل هذا — تحت الإلحاح — أن يرفع التبليغ الذي يرسله إلى ابنه . وتعرف شلي بعد زواجه بقليل إلى جودوين مؤلف كتاب « العدل السياسي » وهو الرجل الذي سيدافع عن الحب المتحرر وينشر مذهبه الإباحي وقد تزوج مرتين .. تزوج من ماري ولستكرافت وهي مؤلفة بارعة وتزوج ثانية من أرملة هي مسز كلير مونت

***

— ٢ —

يرفع الستار عن الفصل الثاني من قصة هذا الشاعر الخيالي الغريب . وقد مضى عهد انتقلت فيه عائلته إلى ايرلندا وويلز ورزقت فيه « هاريت » ابناً جميلاً

هنا قابل شلي نجماً جديداً وهو جميلته « ماري » ابنة جودوين من زوجته الاولى . وكان قد تغير كثيراً أثناء هذه المدة وبدأ ينظر إلى الزواج لا بعين الخيال وإنما بعين الحقيقة الكاملة. أما حبه « لهاريت » فقد بدأ يفتر كما ان عاطفتها السابقة نحوه قد دبت فيها برودة النسيان والسأم. وكثيراً ما تركته وفضلت الإقامة مع أخته إليزا وقد كثرت حينئذ اشاعات عن اتصال « هاريت » برجل يدعى « الماجور ريان » . واشتدت الصداقة بين شلي وآل جودوين وأخذ فتاتان من فتيات العائلة إلى حد العبادة وهما « فاني » و « جين » . وأطلق عليه لقب غريب هو « ملك الاطياف » . وفي هذه الآونة قدمت ماري من اسكتلندا إلى منزلها . وكان شلي توّاقاً إلى رؤية ابنة ماري ولستكرافت لأنه سمع الناس تشيد بجمالها وسحرها

وظفر اخيراً برؤية ابنة ماري .. رأى حلماً مجسداً من البياض الناصع والذهب الوهاج وراعه منها وجهها الشاحب الجميل ، وشعرها الخاطف المسترسل ، وعيناها النسليتان الساجيتان . وأثر جمال هذه الفتاة ورقتها التي بلغت حد المرض في نفس الشاعر وفي خياله إلى الأعماق . ولما تحادثا وجد أن هناك فرقاً كبيراً بينها وبين زوجته « هاريت » . لقد كانت « هاريت » سطحية في كل شيء .. ضعيفة مستهترة لا تتعدى عاطفتها اللهو والمجون . بخلاف ماري التي تأثرت بوالدها وتشبعت بأفكاره الحسنة فهي تتكلم عن دراية وفهم .. وهي تتحدث بقوة ويقين

لقد وجد شلي اخيراً في ماري « الروح الغائب »(١) الذي كان يحن في الجمهور اليه والذي يجاوب وروحه ؛

ثم اعتقد شلي انهُ وجد ضالتهُ المنشودة . وجد مثاله الاعلى الذي حسبه جدّ من الاحلام الزائفة واعتقدت ماري بدورها ان شلي ما هو الا روح إلهٰ إغريقي مجسد . لقد انطبعت في ذهنها له صورة متألقة رسمتها اخواتها في خطاباتهن اليها . ولكن — كما صرح احد الكتاب الانكليز — لم تتفق هذه الصورة مع حقيقة شلي . لقد رأته فتىً حالماً شقيًّا وإن لم يمح بهذا الشقاء أو يعترف به وكانت هي ايضاً تاعسة لما كانت تلاقيه من عنت زوجة أبيها الثرة المتسلطة دائماً . وكثيراً ما كانت تفضل أن تقضي النهار كله في فناء كنيسة « سانت پانكراس » بجوار مقبرة والدتها تقرأ وتتأمل

وذات يوم رأى الشاعر ان يرافقها إلى هناك . . وللمرة الثانية بدأ يمثل دور الحب واخزن بين المقابر التي كان يضفي عليها خياله ثوباً فضفاضاً من السحر . وفي هذا المكان سكب الشاعر الخيالي روحه وقدمها قرباناً في كأس الحب . ولم تتردد « ماري » في ان تبادله هذا الحب وتهوي معهُ فيه الى قرار بعيد . واعطاها شلي نسخة من قصيدته « الملكة ماب » التي كان قد اهداها الى « هاريت »

اخذت « ماري » النسخة الثمينة وقرأتها بشغف واعجاب ولما انتهت منها كتبت في بياض خاتمتها هذه الكلمات ضمن سطور طويلة : —

« إن هذا الكتاب مقدس لديّ ، ولما كنت أعتقد أن أحداً لن يتصفحه غيري ، رأيت »
« أن أكتب ما يلذ لي . ولكن ا ترى ماذا أكتب ؟ أأقول إني أحب مؤلفه حبًّا هو أقوى »
« من أن يضعف خيال التعبرات والقيود؟ أأقول إني شطر أنتسم عنه؟؟ يا أعز ما لديّ »
« وأحب ، لقد تواعدنا على قدّاس هذا الحب أن يكون كلانا للآخر ، ولتطمئن انني إن لم »
« أكن لك فلن أكون لآخر من الناس »

وفي يوليه ترك شلي زوجته الى الأبد . . لقد أخبرها أنهُ لم يعد يمكنه الحياة معها أكثر من ذلك . وكانت هي تحس في أحشائها جنيناً . ووقع الخبر من نفس « هاريت » موقعاً أليماً وكان أن هوى بها الى قرار من المرض سحيق . ولكن شلي الرحيم القلب لم يكن ليهجر امرأة في هذه الحال . لقد كان بارًّا بها وليًّا ، وكان يعاملها أثناء مرضها بما لم يعامل به أحد زوجته . ولكن — على الرغم من كل ذلك — لم يكن هناك بصيص أمل برجوعه كما اتضح . فلما عوفيت حمل اليها رسالته

(١) يذهب شلي في قصيدته ايبسيكيديون الى ان روح الرجل نصف دائرة لا تكملها الا روح المرأة المنشودة وهو المقصود بعبارة « الروح الغائب »

الأخيرة رفيقها بقوله « إن الاخلاص والثبات على الوفاء والقيام على الحب ، ليس ورائها من حسنة ، وإنما هي المكس فهي شر كلها »

ووجدت « ماريت » أن من الصعب أن تقوم أو تجاهر بالمت بمة ذلك النوم كله على « ماري » وحدها فقد استبدت هذه الجيئة بقلبي أمها ، وخفت تقرب شلي بن يرافقها كل يوم الى هذه الغرفة التي تؤقد فيها هذه الأم هذه مرأته « هاريت » وهذا ما دفعها الى أن تحقد على هذه الفتاة التي حالت بينها وبين زوجها لفتى مطائش . !

واتفق شلي مع صديقه ان يعطي خبره الأكبر بن رأيه الى « هاريت » وقد اقتنع انها أصبحت في مأمن من السفية والفاقة وكتب مع « ماري » في مركبة بريد صغيرة اقلتهما الى دوفر ليركبا منها الى داخل القارة . وهنا تبدأ حادثة هرب لم تبدع مخيلة القصصيين موقفاً شاذاً يماثلها — تخيل هذين العاشقين يرحلان في الصباح المبكر — في الساعة الرابعة — تصحبهما اخت ماري — «جين كليرمنت» ! تخيل اختين يعشقان رجلاً واحداً ويهربان معه ! ! ي كتاب الملهاة كان يجرؤ ان يخلق موقفاً كهذا ؟ ان هذا العاشق الغريب الأطوار لم يقدر شيئاً في اخذ شقيقة حبيبته « ماري » معه في هذه الرحلة الفاضحة الشائنة . تصور هؤلاء الثلاثة في دوفر . . في ظهيرة نفس اليوم . . يساومون البحارة على زورق صغير يقلهم الى كاليه !

وركب الجميع المركب فرحين مستبشرين ولكن لم تلبث ان هبت زوبعة اخذ المركب على اثرها يتأرجح بين الامواج . وقضت ماري ليلة عصيبة متكئة برأسها على كتف شلي وهي منهوكة القوى واهنة . وكان الظلام حالكاً شديداً تقصف فيه الرعود وتخطف البروق ولكن ماكاد الفجر يتنفس حتى هدأ الجو وحتى طلع شعاع الرجاء مع ذرور الشمس

ونزلوا في كاليه ينتظرون امتعتهم لانها كانت في زورق آخر . ووصل الزورق اخيراً وفيه مستر جيودوين !! وحاولت زوجة الاب ان تحمل ماري على الرجوع معها الى المنزل ولما أخفقت حاولت ان تغري « جين » ولكنها خابت كذلك في مسعاها الثاني اذ ان « جين » قد اصرت على ملازمة العاشقين في شهر العسل غير الشرعي ! وآبت مستر جودوين بخفي حنين . . بعد ان اخفقت في اخذ الفتاتين اللتين سحرهما منطق شلي المعسول

ووصل الثلاثة اخيراً الى باريس في عربة يجرها ثلاثة جياد . ولكن لم تمض على اقامتهم في المدينة ايام معدودة حتى تدهورت حالتهم الى الفاقة والحاجة . ورهن الشاعر ساعته وسلسلتها الذهبية وسأل صديقاً فرنسيًا يعرفه يسمى « تافرنييه » ان يقرضه ستين جنيهاً

[لها بقية]